الدكتور
صلاح عيد

التركيب الفكري الدقيق
عند أبي نواس

١٩٩١

الفهـرس

القسم النظرى

- القانون ومنطوقه
- الروافد الفكرية الرئيسية الثلاثة عند أبى نواس

القانون :

هذا الكتاب هو فى الواقع تطبيق لقانون خطرت لى فكرته منذ فترة غيرقصيرة حتى تبلور عندى فى شكله المحدد ، وهذا القانون مفاده أن هناك تناسبا طرديا واضحا بين المقدرة الفنية للشاعر وبين عدد الخطوط المتمثلة فى إشعاعه الفكرى أو الخيوط فى نسيج هذا الفكر فكلما زاد عدد هذه الخطوط أو الخيوط التى يتكون منها فكر الشاعر ، زادت مقدرته الفنية وارتفعت مكانته وزاد تأثيره. فلا يكفى أن يطلع الشاعر على أعمال من سبقوه من الشعراء ليكون شاعرا عظيما إذ يمكن أن يكون هذا الشاعر شاعرا ماهرا فقط فى فنه وفى الأدوات المعروفة لما يمكن أن يسمى بحق صناعته الشعريه وأهمها التعامل الفنى الصحيح مع مادة الشعر وهى اللغة لكنه سيتحرك فى إطار مرسوم محدود من فكر السابقين له ومن شىء من الفكر الذى يحصل عليه فى مسار حياته أما الشاعر العظيم فإنه ذلك الذى يتسع أفقه الفكرى لمختلف ألوان العلم والثقافة والفن وهذه الألوان كلها ستصب فى إبداعه سعة وتنوعا وغنى وعمقا

ودقــة .. والفـرق بين الشـاعـر ين هنا هو نفس الفـرق بين الضـوء أحادى اللون ذى الموجة الواحدة وبين ضـوء الشـمس الذى يحتوى على جميع مختلف ألوان الضـوء وأطوال موجاته من أقصرها ممثلة فى اشعة جاما إلى أطولها ممثلة فى الأشعة اللاسكية. صحيح أن ضوء الشـمس يبدو لنا ضـوءاً واحدا لكنه ضـوء غنى باطواله الموجية المتعـددة ، ولكى نتـأكـد من غنى ضـوء الشـمس لابد أن نسـتـخـدم منشـورا زجاجيا مثل ذلك الذى استخدمه إسحاق نيوتن وحلل به ضـوء الشمس إلى ألوانه السبعة الجميلة التى يمكن أن تراها العين خـارجـة من السطح الآخـر للمنشـور فى غرفة مظلمة لا يدخلها الا شـعـاع ضـيق من ضـوء الشـمس ، لكن تبين بعـد ذلك أن ضـوء الشمس لا يحتوى على هذه الألوان أو الأطوال من الضوء فقط بل إنه يحتوى على أطوال موجية لا تراها العين لكن لها أثرها الذى يمتد إلى وجود واسـتـمرار الحياة نفسـها على كوكبنا الأرضى الصـغير من أشعة جاما حتى الأشعة اللاسلكية وهذا الذى فعله نيوتن والذى فعله العلماء من بعده إجراءات ضرورية لتحليل ضوء الشـمس الذى يبـدو لنا ضـوءاً واحدا ، فـهناك جـهـد لابد أن يبذل

لتحليل ضوء الشمس إلى مكوناته الأساسية ، وكذلك هناك جهد لابد أن نبذله نحن لتحليل الإشعاع الفكرى للشاعر الكبير إلى مكوناته وعناصر وخطوطه الأولية التى تكون هذا الاشعاع الذى يبدو لنا واحدا صادرا من مصدر واحد هو هذا الشاعر الكبير الذى له كل هذه المكانه وهذا التأثير ، ومن هذه المكونات ما يمكننا التقاطه بسهولة ومنها ما هو خاف أو غير مباشر تماما كالاشعة التى لا تراها العين فى ضوء الشمس والتى تحتاج إلى جهد أكبر للتعرف عليها.

وهذا البحث الذى بين أيدينا هو اختبار لمدى صحة هذا القانو ن الذى يربط بين المقدرة الفنية لشاعر كبير كأبى نواس وبين عدد الألوان الثقافيةالتى يتكون منها فكره على أساس التناسب الطردى بين المقدرة وبين عدد الألوان والعناصر المتمثلة فى فكره لأنه كلما زاد عدد هذه الالوان زاد أفقه اتساعا والعكس بالعكس بشرط هام جدا هو ان يكون تمثله لالوان الثقافة تمثلا عميقا وأن يكون هضمه لها هضما كافيا وبحيث تكون قد دخلت تكوينه الفكرى دخولا محكما واصبحت بالفعل خيوطا أصيلة فى نسيجه وليست مجرد

أشتات من المعرفة من هناوهناك يورد من الشواهد مايدل به على أنه ألم إلمامابها فهناك فرق بعيد بين الحالين ، وهذا هو السبب فى ضرورة دخول وصف هذه الألوان بالتمثل والهضم الكاملين فى منطوق هذا القانون ، ومن أجل ذلك فإن عملنا فى هذا البحث يتركز أساسا على النص الشعرى نفسه وليس على الأخبار والروايات التى تذكر لنا أن هذا الشاعر قد درس هذا العلم أو ذاك أو اهتم فى حياته بهذه الفلسفة أو تلك لأننا نريد أن يكون درسنا للواقع متمثلا فى النتاج الشعرى الذى يهمنا بالدرجة الأولى .. نريد أن نحلل الخيوط والخطوط من نفس الاشعاع الفكرى الصادر عن الشاعر وليس من شىء خارجى يشير إلى دخول هذا الخط أو العنصر فى تركيبه .

وواضح أننا فى مثل هذا البحث أمام عمل دقيق حقا لأن تحليلنا لهذا المركب الواحد لطبيعة الإشعاع الفكرى للشاعر يتطلب إدراكا للعناصر الحقيقية الداخلة فى هذا المركب من إشارات لن تكون كثيرة ولا مفصلة بحكم طبيعة الفن الشعرى وهذه الإشارات علينا

أن نلتقطها التقاطا وأن نقارنها بما ورد منها أو بما يماثلها فى أعمال الشاعر ، وأن نعرضها على الخلفية الفكرية لعصر الشاعر ما أمكننا ذلك ، وأن نفهمها فى ضوء التركيب الشامل لفكره لأن قيمة هذه الإشارات لا تتحقق إلا بهذه المقارنة وهذا العرض . لقد أردت أن اختبر تطبيق هذا القانون من التناسب الطردى بين المقدرهالفنية وبين مختلف الخطوط والألوان فى المركب القكرى لأبى نواس الذى عاش أزهى عصور الحضارة العربية على الإطلاق بعد ان لاحظت الاشارات الواردة فى شعره الى مختلف ألوان الفلسفة والمنطق والعلم بالفلك والفقه والحديث وغيرها والواقع أنه يمكننا رد الألوان الفكرية عند أبى نواس إلى ثلاث ثقافات نحار فى ترتيبها بحسب أولويتها أو أهميتها فى هذا المركب الفكرى هى العربية واليونانية والفارسية أما الرافد اليونانى لهذا الفكر فيظهر فيما ورد فى شعره من فكرة التولد السقراطية ومبدأ الهوية الأرسطى ، وأهم من ذلك لفهمه العميق لمعنى الفلسفة باعتبارها نظرة كلية شاملة فى علم من العلوم وهذه النظرة الشاملة لم تقف عند مفهوم الفلسفة وإنما تجاوزتها إلى نظرته الفنية أيضا حين يرسم شيئا ما بكلماته

فيحيط إحاطة «فلسفية» كاملة بهذا الشيء على نحو ما سنرى باذن الله فى القسم التطبيقى من هذا البحث ، وأما الرافد العربى فيتجلى فيما ورد فى شعره من إشارات إلى الفقه والحديث والاستنباط وعلم الكلام وماورثته الحضارة العربية من الحضارات القديمة فى العراق ومصر من علم الفلك والحركة الظاهرية للشمس وحركتها السنوية وعلاقة الحركة بالزمان مما يدل على الفهم العميق الدقيق لأبى نواس لهذه الجوانب فى إشاراته التى سنقوم بتحليلها للوقوف على مدى تمثل الشاعر لها وقدرته على استغلالها فنيا وان كنا سنضم علمه بالفلك ، إلى الفلسفة لأن هذا العلم ظل يعد جزءاً منها حتى القرن السابع عشر الميلادى.

أما الرافد الفارسى عند هذا الشاعر والذى يعود إلى أصله الفارسى نفسه فيتتجلى واضحافى نزعته القصصية التى أبرزها التصوير والحوار، أما التصوير فهو فيه بحق ابن الثقافة الفارسية بتركيزه على الليل ومفاتن الطبيعة والحياة الناعمة اللاهية التى تقوم على فلسفة التمتع بالحاضر ، وتتجلى فى ذلك الاختيار الموحى

الجميل للاشعار المغناه فى ليالى الطرب واللهو فى إشاراته إلى قصائد الهوى والوجد ومطالعها ، إنه بحق ابن الثقافة التى أبرزما فيها ألف ليلة وليلة، وأما الحوار ففيه براعة وحيوية وجمال لا مثيل له عند شاعر آخر على طول الأدب العربى. هذه التركيبة أو الباقة من ألوان الفكر والثقافة عند أبى نواس عناصر هذا المركب الفكرى الفاتن عند هذا الشاعر وهى تثبت لنا صحة القانون الذى نحن بصدد البرهنة عليه فى هذا البحث من التناسب الطردى بين المقدرة الفنية للشاعر وبين عدد الألوان والخطوط الفكرية وتنوعها كما تظهر فى شعره ذاته وكما يكتشفها التحليل الذى هو أشبه شىء بتحليل الضوء الغنى إلى مكوناته.

لقد اكتسب الشاعر هذه الألوان المتعددة التى تنتمى إلى الروافد الكبرى الثلاث اليونانية والعربية والفارسية كما نلمح فى الإشارات التى سنعالجها في هذا البحث وهذا هو السر فيما نراه فى إبداعه الشعرى من ثراء وتدفق وتميز حتى فى المواضع التى لا تظهرفيها هذه الأشارات بذاتها لكن تأثيرها واضح فى البناء التركيبى الفنى

لهذه الشخصية التى تتكلم فى أى مجال فتحس بما وراء كلامها من أعماق وأبعاد لا تصدر مطلقا عن شخصية أحادية لون الفكر والثقافة. وأحب أن أضيف هنا شيئا يؤيد صحة هذا القانون الذى يربط بين عدد الخطوط الفكرية المتنوعة وبين مقدرة الشاعر الأدبية ففى أثناء درسى للسيرة الذاتية لتوفيق الحكيم وجدت أن التميز والتفوق لدى هذا الأديب الفنان الكبيرفى مجال الرواية إنما يرجع إلى تعدد الألوان الفكرية التى حصل عليها أثناء وجوده فى فرنسا فقد كان له نهم كبير فى الاطلاع على كل مايقع تحت يده من كتب التاريخ والفلسفة والاقتصاد والفن وحتى العلم فى أشهر نظرياته لم يحجم عن الاطلاع عليه بشغف و نهم ، ومعنى ذلك أن الأديب أكان شاعرا أم قصاصا إنما يحقق تميزه بكثرة الألوان التى يضمها نسيجه الفكرى ، ففى عصرين متباعدين هما العصر العباسى الأول والعصر الحديث ، وعند أديبين أحدهما شاعر والآخر كاتب قصة يتحقق نفس القانون .. قانون التناسب الطردى بين عدد الألوان الفكرية وبين المقدرة الفنيةللأديب ولا شك أنه يرد على خاطرنا الآن ذلك التعريف القديم للأدب بأنه الأخذ من كل فن بطرف باعتباره

أحد صور تأييد أهمية هذه العلاقة التى تجمع بين هذا الكم المتمثل فى زيادة عدد الخطوط والألوان الفكرية المتمثلة تمثلا حقيقيا كاملا فى ذهن الشاعر وبين هذا الكيف المتمثل فى المقدرة الفنية ومدى ما يحققه الأديب من مكانة على أساسها ونحن نرى فى تطبيق هذه العلاقة على أبى نواس نموذجا طيبا لاختبار مدى صحتها أو صحة هذا القانون على حالات أخرى فى التاريخ الطويل للأدب العربى بالتحليل الدقيق لفكر الشاعر من واقع النص الأدبى نفسه بوجه خاص . والآن هيا بنا نلقى نظرة على الموقع التاريخى لهذه الروافد الثلاثة التى شكلت فكر أبى نواس :

بين المرحلتين القديمة والحديثة فى تاريخ الحضارة البشرية اللتين قادتهما مصر القديمة والغرب الأوربى تقع المرحلة الوسطى التى توزعت مراكزها بين أثينا والاسكندرية فى حلقتيها الهلينية والهلينسنية وبين بغداد فى الحلقة العربية التى تنتهى بها المرحلة الوسطى فى الحضارة لتبدأ بعدها المرحلة الأوربية الحديثة ، وهكذا ورثت الحلقة العربية الحضارة اليونانية التى كانت امتداداً للحضارة

المصرية القديمة بوجه خاص وسبقت المرحلة الأوربية الحديثة مباشرة.... فى هذا الموقع التاريخى من أزهى فترات النهضة العربية فى القرن الثالث الهجرى عاش أبو نواس حيث حركة الترجمة النشطة فى هذا العصر تزود العربية بثمار الفكر اليونانى الدقيق العميق الذى تزود بدوره من الحضارة القديمة فى مصر ، وبعد أن كان علماء اليونان وفلاسفتهم ومنهم أفلاطون يقدمون إلى مصر طلبا للعلم ، فإن اليونانيين بعد أن انقضى الدور الفعال للحضارة للمصرية القديمة وأصبحت مصر جزءاً من الامبراطورية اليونانية اختاروا الاسكندرية مقراً للعلم وخلفهم عليها الرومان ، وظلت الأسكندرية عاصمة عالمية للعلم ستة قرون حتى فتحها العرب حيث تحول المركز العالمى للعلم إلى بغداد التى شهدت على يد الخلفاء العباسيين الأوائل تلك الفترة الزاهرة من النشاط العلمى الواسع ترجمة من اليونانية والهندية والفارسية،وتوسعا فى فتح المكتبات مما أنتج حركة عقلية واسعة فى عهد الرشيد بلغت ذروتها فى عهد المأمون قبل أن تأخذ فى الانحدار مع استعانة المعتصم بالأتراك البجكمية والتورونية الذين قوى بهم التيار المعارض لحركة

الفلسفة التى قادها المعتزلة فى المشرق.

فى هذه الفترة الزاهرة من الرقى العقلى عاش أبو نواس الذى تدل أخباره على أنه كان شغوفا بالعلم شغفا قويا فقد أسلمته أمه التى تزوجت بعد وفاة أبيه لعطار يبرى له أعواد البخور ، وكان الفتى يمضى ليلا إلى المسجد الجامع بالبصرة حيث حلقات العلم والأدب ، وكان الحسن يتنقل بين هذه الحلقات المختلفة لا يفوته عالم أو راوية أو محدث أو فقيه إلا جالسه واستمع إليه وقد أشار ابو نواس إلى هذا العهد من الاقبال على العلم فى قصيدته التى سنتناولها فيما بعد :

عفـــا المصلى وأقـــوت الكتب ... منـــى فالمربـــدان فاللبـــب

فالمسجد الجامع المروءة والديـ ... ـين عفا فالصحان فالرحـــب

منـــازل قـــد عرفتـــها يفعـــا ... حتى بدا فى عذارى الشـــهب

ولعلنا نستطيع فى هذا الضوء أن نرى جذور الإشارات التى وردت فى شعر أبى نواس دالة على عقلية أقرب إلى التركيب منها إلى البساطة شعت هذا الضوء الغنى الباهر من الإبداع الشعرى

القوى الخالد . وهى شخصية لم ينل منها إلا هذا الانحراف الخلقى الذى يأسف له قــارئ ديوان أبى نواس ، لكن ذلك لا ينبــغى أن يصرفنا عن هذه الشخصية الفذة التى أراها تتجاوز الأدب العربى إلى الأدب العـالمى ذلك أن عمـر الخيام ليس فى الواقع إلا امتدادا طبيعيا لفكر أبى نواس وفلسفته فى الحياة .

القســم التطبيقى

١ – الرافـد اليونانى

٢ – الرافـد العــربى

٣ – الرافـد الفارسى

الرافد اليونانى :

ليس هينا على الإطلاق أن ترد الفلسفة باسمها مع الفهم العميق لمغزاها وجوهرها فى شعر الشاعر لأن الفلسفة هى أم العلوم ، والعقل الذى يتأمل الفلسفة ويقف على طبيعتها وينقل قضاياها الكبرى إلى مجالات أخرى من الحياة محتفظا بمفهومها ومضيفا إليها ليس فقط عقل شاعر يمتلك القدرة على التعبير عما يحس به من مشاعر أولية كالحب والكراهية واللذة والألم إنما هو أكبر من ذلك فالذى يبدو لنا منه هو الجزء الذى يبدو طافيا فقط من جبل الجليد فى الماء.

وكلمة الفلسفة بالذات وردت عند أبى نواس والمتنبى وشوقى ولا أراها وردت عند غيرهم من شعراء العربية على الإطلاق .

غير أننى أرى أن أبا نواس كان أكثر الشعراء الثلاثة تمثلا واستيعابا لمعناها وأكثرهم وضوحا فى التعبير عن هذا المعنى باعتبارها نظرة شاملة للعلم ومن يحصل على هذه النظرة الشاملة هو الذى يستحق أن يسمى فيلسوفا .. نعم كان أبو نواس هو أكثر

الشعراء الثلاثة صراحة ووضوحا فى التعبير عن هذا المفهوم العميق للفلسفة فى قوله :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة
حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ حَظِراً
فإن حظركه بالدين إزراء

فالبيت الأول واضح تماما فى معنى شمول الفلسفة لكل جزئيات العلم ، والبيت التالى برهان على أن حظر العفو (عن مرتكب الكبيرة) إزراء بالدين لأن حظر العفو يجعل أفق الدين يبدو ضيقا لا رحبا ولا شاملا وهو المعنى الذى يفهم من قوله فى البيت السابق حفظت شيئا وغابت عنك أشياء . فوعى هذا الحاظر بالدين عند الشاعر ليس كاملا ولا شاملا لأن الدين أوسع وأشمل من نظرته.

ومعلوم أن بداية الفكر المعتزلى الفلسفى كانت من هذه النقطة بالذات التى يثيرها أبو نواس فى هذين البيتين وذلك فى الحادثة الشهيرة لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى بعد أن

رأى أن مرتكب الكبيرة هو فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر . وهذه القضية هى إحدى ثلاث قضايا فكرية كبرى شغلت الفكر العربى المسلم على طول تاريخه وهى قضية مرتكب الكبيرة وقضية الجبر والاختيار وقضية خلق القرآن . واذا كانت قضية مرتكب الكبيرة هى بداية الفكر الفلسفى فإن قضية خلق القرآن كانت إيذانا بنهايته فى صراعه المرير مع أهل السماع والإجماع ولم يدرك أبو نواس نهاية الفكر الفلسفى وإنما عاش مرحلة ازدهاره فى المشرق العربى .

هكذا يعى عقل أبى نواس المفهوم الجوهرى للفلسفة ويعبر عنه هذا التعبير الواضح ويطبقه على هذه القضية التى كانت لا تزال ساخنة فى أيامه وإن انتصر فيه لاتجاه عفو الله سبحانه وتعالى عن أصحاب الكبائر الذين كان هو نفسه منهم كما هو معلوم .

والمتنبى نسب الفلسفة إلى ابن العميد فى قوله

عربى لسانه فلسفى   رأيه فارسية أعياده

وواضح أن الرأى الفلسفى هو الذى يصدر عن فكر محيط

بالأمور لا تغيب عنه جوانبها وهكذا يكون الشمول كامنا ومفهوما بشكل ضمنى فى هذا الفكر غير أن فكرة الإحاطة والشمول يعرضها المتنبى فى قصيدة أخرى ناسبا إلى ممدوحه الإحاطة بعظماء الفكر اليونانى فى قوله :

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم جالست رسطاليس والاسكندرا
ورأيت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا

ومعلوم أن أرسطو نموذج للعقلية الفلسفية التى لم تدع علما من العلوم ولا ظاهرة من ظواهر الكون والحياة إلا تحدث فيها صاحبها برغم الأخطاء التى وقع فيها . لكنه كان حقا نموذجا لهذه العقلية المحيطة الشاملة .

صحيح أن المتنبى لم يبعد فى فهمه للفلسفة عن معنى الشمول ولكنه معنى استخلصناه استخلاصا من أكثر من قصيدة ولم يشر إليه بكل هذا الوضوح والجمال كما أشار أبو نواس فى بيت واحد بل فى شطر واحد عبّر فيه باقتدار الأستاذ عن هذا المفهوم وطبقه على هذه القضية الفقهية الساخنة فى أيامه بل امتد بصره ليشمل

الدين برؤيته .

والآن هيـا بنا نقـارن هذه الرؤية لأبى نواس برؤية شـوقى فى الفلسفة فى دعوته إلى الجمع بين العلم والأدب :

إن للعلم جميعا فلسفه   من تغب عنه تفته المعرفه

والواضح أنه يقصد هنا أن للعلم فى مجموعه فلسفة ، أو أن للعلم باعتباره اسما لجنس العلوم هذه الفلسفة .

وفى الشطر الأيسر يرى أن من غابت عنه هذه الفلسفة فاتته المعرفة ولكن أية معرفة ؟ ما صفتها وما طبيعتها ؟ إنها بطبيعة الحال المعرفة المحيطة الشاملة التى لم يبق للإشارة اليها حيز موسيقى فى هذا البيت بينما استغرق أبو نواس شطر بيته السالف الذكر فى بيان الإحاطة والشمول اللذين يمتاز بهما العلم حتى يصل إلى درجة الفلسفة ، وهكذا ترك أمير الشعر وصف المعرفة المتعلقة بفلسفه العلم لحدس القارئ الذى يمكن أن يراها المعرفة الحقة أو العميقة أو الدقيقة أو غيرها بينما كان يمكن أن يحوّر الشطر الأيسر من بيته لبيان هذا الأمر الجوهرى البالغ الأهمية الخاص

بفلسفة العلم التى ذكرها فى الشطر الأول ليكون البيت على النحو التالى :

إن للعلم جميعا فلسفه هى فى العلم شمول المعرفه

ألا ترى معى أن البيت لم يفقد الكثير من رونقه وبهائه بهذا التحوير بينما تدارك هذه المعرفة من تركها معلقة لا يعرف القارئ ماذا يراد بها تلك التى تنتج من فلسفة العلم . خاصة وإن شوقيا كان فى مجال تبيين الأسس الجوهرية للنجاح فى الحياة فى قصيدته البديعة رسالة الناشئة والتى كان البيان والايضاح فيها مطلوبا بطبيعة الحال فى مثل هذا المجال غير السهل بالذات مجال الفلسفة .. ومع ذلك فإن ما استنبطناه من معنى الفلسفة الشاملة عند المتنبى وما حورناه من بيت شوقى ليدل دلالة صريحة على طبيعة فلسفة العلم كلاهما لا يبلغ فى دقته وشموله وحيويته وبساطته الآسرة مبلغ بيت ابى نواس :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

فنحن فى هذا البيت وما تلاه نقف بالفعل أمام أستاذ متمكن

غـاية التـمكن من الفـهم لهـذه الذروة العليـا من ذرى العلم فى كل العصور .. ذروة الفلسفة .

ومما يؤكد تغلغل الفلسـفة فى فكر أبى نواس نظـرية تولد الأفكار التى تنسب إلى سقراط فقد طبقها هذا الشاعر على الجمال الأنثوى فى هـذه المقطوعـة التى أراها من أروع فـرائد الفن الشـعرى على الإطلاق :

وذات خــد مــورد	فتــانة المتجــرد
الحسن في كل جزء	منها معاد مــردد
فبعــضه يتنــاهى	وبعــضــه يتــولد
وكلما عــدت فــيه	يكون بالعود احمد

فتولد الفكر من الفكر تحول إلى تولد الحسن من الحسن،والبيت الأول شطران يقتسمـان هذه النظرة الكلية الشـاملة فى هذا الحيز الموسيقى الصغير إلى الوجه والجسم جميعا وهو ما سنرى له نظائر فى مواضع أخرى عند أبى نواس :

وذات خــد مــورد	فتــــانة المتجــــرد

وفى البيت التالى نأتى إلى هذا الحسن «الشامل» لكل جزء من هذا الكل الفاتن ، وإذا هو حسن متحرك معاد مردد . والعودة هى حركة الأشياء والأحياء فى هذا الكون ، وهذا هو أيضا معنى الارتداد الذى يحقق قافية البيت فهو فى حركة دائمة عائدة مرتدة إلى بدايتها . وتعاقب الكلمتين نفسه يسهم فنيا فى الايحاء بالتكرار الذى هو طبيعة الحركة الكونية الشاملة لكل شىء وكل حى . وفى البيت التالى نأتى إلى هذا الحسن الذى يتناهى بعضه بينما يتولد بعضه الآخر ، فمن هذا الكل الذى يشمل الكيان الأنثوى الجميل جزءا جزءا فى البيت السابق إلى هذا الكل الذى يشمل الحسن نفسه ، من بعضه المتناهى وبعضه المتولد ، هنا يتجسد الحسن نفسه ويكون له كيانه الذى يتحرك هذه الحركة المستمرة بين التناهى والتجدد أو التولد . وهذا التجسيد للمجرد هو أصل هام من أصول الفن الشعرى لأنه عودة إلى أصل التفكير نفسه الذى يبدأ بالمجسد ويظل يرتقى حتى يصل إلى المفاهيم المجردة فهى عودة إلى البداية . وإلى طفولة الفكر البشرى التى لا تزال تعيش داخلنا مهما أمعن الفكر فى التجريد .

الحسن إذن كيان حى قائم بذاته له حركته التى تشمله بين التناهى والتولد، وكأنها حركة الحياة نفسها، تتناهى الأفراد فى الكيان البشرى وتولد أفراد أخرى لتحقق الاستمرار النوعى لهذا الكيان وعند سقراط أن الفكرة تتولد من الفكرة كما يتولد الكائن الحى من الكائن الحى ، هذه الفكرة ضمنها أبو نواس شطره الأيسر فى هذا البيت بعد أن نقلها من عالم الفكر إلى عالم الجمال لكنه انعطف بها نحو فكرة سابقة لها فى الشطر الأيمن هى فكرة التناهى محدثا هذا الترابط الدائم بين الميلاد والموت وهما النمطان المستمران للحياة النوعية ، وهو يبلغ ذروة الإبداع حقا فى هذا «التناهى» الذى يرسم به صورة دقيقة موحية بهذا الذهاب بنعومة وانسيابية ولطف بالغ لا تحس معه بصدمة المفاجأة ولا بحدة الانقطاع . إن هذا البعض لا ينتهى ولا ينقطع فجأة ليحل محله بعض آخر بل هو يذهب ذهابا ناعما سلسا هادئا كأنه أخذ النوم الهادئ للعيون ، لقد كان يكفى أبا نواس فخرا أنه نقل ببراعة فكرة التولد من الفكر إلى الحسن ولكنه زاد على ذلك تلك النظرة العالية المستشرفة للحياة بأسرها بين بعض يتناهى وبعض يتولد محققا

دورة بين شطرى البيت هى نفسها دورة الحياة بأسرها وبذلك حقق إنجازين رئيسيين ارتفعا به فى هذا البيت بحيزه الموسيقى الصغير إلى ذروة عليا من ذرى الفلسفة كاشفا لنا عبر هذا التحليل عن عقلية تشع إشعاعا غنيا عميقا فى لحظات الإبداع والإلهام هى نتاج تحصيل طويل فى هذا العصر الذى عاشه أبو نواس والذى ازدهرت فيه الفلسفة محتضنة للفكر العلمى فى تلك العصور .

ولا شك أننا نشعر بالبون الشاسع بين دلالة هذا الشعر وبين دلالته فى العصر الجاهلى من حيث الغنى والدقة والعمق،فهو يمتلك فى هذا العصر فكرا لم يخطر للجاهليين على بال ، وإذا كان فكر الجاهليين وعلمهم مكافئا لشعرهم فإن الفكر فى العصر العباسى قد أثرى بما رفدته الثقافة اليونانية بوجه خاص من فلسفة ومنطق وعلم وإن كانت قوة الشعر الجاهلى وعنفوانه قد استمدا من اتصاله القوى بنبع الطبيعة التى لم يكن بينه وبينها حواجز فكانت المعرفة الدقيقة بنفسية الحيوان وأحوال البيئة المحيطة وأثر قسوة الرحيل الدائم على النفوس مما بعث الحرارة فى هذا الشعر ، وهكذا ننتقل

من تكافؤ الشعر والعلم فى العصر الجاهلى إلى هذا الفيض من العلم الذى اخضر منه عود الشعر ، ونمت عليه الثمار والأزهار البديعة الفاتنة التى نراها ونشم رائحتها فى مثل هذه المقطوعة البديعة النادرة من شعر أبى نواس .

وهيا بنا نتأمل قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هي الخمر

ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهر

هل يريد الشاعر فى الشطر الأول العلاقة بين الخمر واسمها أم العلاقة بين الخمر وذاتها فيما يعرف بالمبدأ الأول من مبادىء المنطق الأرسطى وهو مبدأ الهوية القائل بأن الشىء هو الشىء ، أو بلغة الرياضيين أن أ هو أ وهذا المبدأ هو الركيزة الأولى للمنطق ؟ من الوهلة الأولى يبدو لنا أن الشاعر يريد أن تسمى الخمر باسمها ولا يكنى هنها باسم آخر ، وأن يشربها جهرا لا سرا،ولكن تسمية الخمر باسمها الحقيقى لمثل أبى نواس لا يمكن أن يكون المعنى العميق لهذا الشطر فهو يريد من الساقى الذى يصب له الخمر أن

يقول له إنها هى الخمر وليست شيئا آخر ! .

ثم إن ورود «الهو» فى نص هذا الشطر يؤكد أن هذا الشاعر الذى قلب حديثه عن الخمر على كل وجه ينقل مبدأ الهوية الأرسطى إلى عالم الخمر ، كما نقل فيما سبق ببراعة كبيرة فكرة التولد السقراطية من عالم الفكر إلى عالم الحسن ، فالخمر التى يشربها الآن هى الخمر وليست شيئا آخر وهل يقول مبدأ الهوية الأرسطى إلا هذا ؟ إن الشيء المعين الذى نراه الآن هو الشىء نفسه وليس شيئا غيره ؟ ليس هناك ابدا لقولنا أ=أ إلا أن أ هى أ وليست شيئا غير أ لكن هذا المبدأ الذى يبدو لنا للوهلة الأولى بسيطا ساذجا ، هذا المبدأ هو أعمق وأعظم مبادىء التفكير على الاطلاق لأننا إذا اكتشفنا ان أ هى ب فمعنى ذلك أننا نزيل عن انفسنا جهلا سابقا بهذا التكافؤ بين شيئين كنا نسمى أحدهما أ والآخر ب مع أنهما فى الحقيقة شىء واحد،وهذا الشىء الواحد كان يجب ان نطلق عليه اسما واحدا،لكن جهلنا السابق هو الذى جعلنا نطلق اسمين مختلفين على صورتين له ، ونحن الآن بمقتضى هذه المعرفة الجديدة

نستطيع ان نقول أ هى أ لأن ب ليست فى الحقيقة إلا أ.

وهذا الشاعر الذى يريد أن يقول له ساقيه عن الخمر التى يصبها له إنها هى الخمر ليس مجرد شاعر وحسب وانما هو فيلسوف قال عن نفسه يوما :

فكيف ترون زجرى واعتيافى ألست من الفلاسفة الكبار ؟

ونحن نرى الدعوة إلى الجهر ما أمكن بدلا من السر والكشف بدلا من الستر فى سقيا الخمر ينعطف فى الشطر الأيسر نحو الشطر الأيمن من حيث دوران كل منهما حول محور واحد هو هذه السقيا ، لكن هذا ليس كل شىء ، فالخمر لا تختفى حقيقتها أمام الشاعر وراء أسماء أخرى يكنى بها عنها ، الخمر هى الخمر ، وشربها لا يختفى بدوره وراء حجاب عن الناس ، وهكذا يكون الكشف عن حقيقة الذات فى مبدأ الهوية فى الشطر الأيمن منعطفا نحو الكشف عن حقيقة الفعل (الشرب) فى الشطر الأيسر ، ويتحرك تيار الدلالة حركته الدائرية عبر هذا الكشف عن الفعل والكشف عن الذات المتعلقة بهذا الفعل (الخمر وشربها) فى

الشطرين ، ولعلك توافقنى أننا بهذا نقف أمام عقلية عالم حتى فى هذا المجال مجال الخمر ! تلك العقلية التى لا يستهويها شىء مثل الحقيقة والوضوح ، ولهذا يرتبط دائما سعى العالم إلى الحقيقة فى أعلى مراتبها متمثلة فى مبدأ الهوية بالذات ، يرتبط هذا الكشف بسعيه إلى كشفها واعلانها للناس !

وهيا بنا نتأمل هذا اللون الفلسفى الذى يوحد بين المتضادات عند أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء

فالفلسفة فى نظرتها الشمولية الكلية للوجود تسعى إلى توحيد الأشياء حتى ما يبدو منها متضادا أو متناقضا ، وهذا التوحيد هو أيضا غاية العلم فى أعلى درجاته وفى أهم منجزاته ، وليس أدل على ذلك من المصل الذى هو دواء من نفس الداء،وهذه الفكرة التى تعد من إنجازات الطب الحديث هى التى يتضمنها الشطر الأيسر من هذا البيت ، فالخمر عند الشاعر هى الداء وهى الدواء ايضا ، إنها النقيضان معا ، وكثيرا ما يذكر الشاعر أن الخمر تنفى ألم

الخمار فهى التى تجعل المخمور – كما يذكر كثيرا فى خمرياته – هامد الجسم وهى نفسها التى تبعث فيه الحركة والنشاط إذا عاود شربها .. فهى الداء وهى الدواء ، وهذا المعنى فى الشطر الأيسر من البيت يتحرك منسجما مع المعنى فى الشطر الأيمن السابق له حيث اللوم هو الإغراء أو الشيء هو نفسه ضده ، لأن اللوم عند الشاعر يحدث نفس أثر الإغراء على شرب الخمر وهو معنى مهد له كثيرا فى خمرياته حين يذكر أن عذل العذال يدفعه إلى المزيد من شرب الخمر ، هكذا ينعطف توحيد الضدين من الداء والدواء فى الشطر الأيسر نحو توحيد الضدين من اللوم والإغراء فى الشطر الأيمن داخل إطار النزعة الفلسفية المتغلغلة حقا فى فكر أبى نواس.

وهذا اللون الفلسفى يظهر كذلك فى قوله :

وجدت طبائع الانسا ... ن أربعة هى الأصل

فأربعة لاربعة ... لكل طبيعة رطل

وأبو نواس لا يأتى بالفكرة الفلسفية وكفى .. أنه يضيف لها أو يعلق عليها – كما يفعل هنا – هذا التعليق الذى يبدو تعليقا ساخرا

بينما يورد أبو العلاء المعرى نفس هذه الفكرة المعروفة لأرسطو بقوله :

الناس من أر بعة مجمعه ماء ونار وتراب وهــوا

والإضافة إلى الفكرة الفلسفية هو شأن أبى نواس فيما قدمنا له من الأفكار الفلسفية التى دارت فى شعره فقد جعل التولد فى مقابل التناهى فى قوله :

فبعضه يتناهى وبعضه يتولد

فلم يثبت الفكرة الفلسفية كما أثبتها أبو العلاء بشكل مجرد ، وإنما نقلها من مجال إلى مجال آخر .. من الفكر إلى الحسن ثم جعلها فى تقابل دائم مع التناهى أو الفناء ، وهما نقيض الحياة .. وهذا الذى فعله أبو نواس له قيمته الكبرى فى الدلالة على ما تمتع به فكره الخاص من غنى وخصوبة وقدرة على تمثل الأفكار ، وإدراك العلاقات بينها وقد رأيناه كذلك يردف مبدأ الهوية الفلسفى الذى هو جوهر العلم بمبدأ الكشف والإظهار الذى هو غاية العلم فى قوله :

ألا فـاسـقنى خـمـرا وقل لى هى الخـمـر

ولا تسـقنى سـرا إذا أمكن الجـهـرُ

فهو لم يكتف بنقل نظرية التوالد السقراطية من مجال لآخر ولا مبدأ الهوية الأرسطى من مجال لآخر بل يردفه بمبدأ آخر يقابل به بين الجوهر والغاية للعلم فى أعمق وأهم مظاهره .

وهأنت ترى معى أنه كلما أعدنا النظر فى فكر الشاعر كلما أبصرنا المزيد والمزيد من الأعماق والجوانب فهو صاحب فكر مركب بحق ، ولعل فكره هذا أشبه بالوجه الحسن الذى وصفه هذا الوصف الفلسفى البارع العميق :

يزيـدك وجهـه حسنا إذا مـا زدتـه نظـرا

أنك تتأمل خمريات أبى نواس فتكشف لك عن موقف فلسفى حقا من الحياة هو موقف التمتع باللذة الحاضرة وهذا موقف الابيقوريين المعروف ، ومن يتأمل شعر الخيام يجده امتدادا لفكر أبى نواس الفلسفى ومذهبه فى الحياة . واذا كان الخيام قد غدا شاعرا عالميا فإن أبا النواس كذلك شاعر عالمى غير أنه هبط بشعره ذلك الجانب

السيء الشاذ فى الجنس .

وهكذا نرى أن الفلسفة لم تكن فقط وعيا بمفهومها الشامل عند أبى نواس بل لقد تغلغلت افكارها فى فنه تلك الأفكار التى تمثلها تمثلا جيدا مكنه من نقلها من مجال لآخر والاضافة إليها، وحياته نفسهاكانت مذهبا فلسفيا بحق ، وان كانت ردا على فشله المأساوى فى حب جنان تلك الجارية التى لم يحب غيرها من النساء فى حقيقة الأمر.

فإذا تركنا لون الفلسفة فى تركيب الاشعاع الفكرى لأبى نواس كشف لنا شعره عن ألوان أخرى يتركب منها هذا الفكر الغنى الخصب منها اطلاع لابأس به على علم الفلك فى أيامه وقد تجلى ذلك فى إشارته البارعة إلى الموضع الظاهرى للشمس فى قوله :

لما رأيت محل الشمس فى الأفق وضوؤها شامل للدور والطرق

صيرتها التى أحببتها مثلا إذا لا ينالهما شيء سوى الحدق

ولو نظم هذا الشعر غير أبى نواس ممن لا يدخل هذا اللون من الاطلاع فى تركيب فكره لما خطر له «محل» الشمس أو موضعها

الظاهرى فى الأفق على بال ولفقدت دلالة البيت أكبر مصدر للقيمة فيها ، لأن هذه الكلمة وحدها تشع ضوءا بالغ الدقة عميق الإيحاء لارتكازها علي خلفية من الاطلاع الواسع،ومما يدل بوضوح على أن هذه الكلمة لم تأت عفوا إلى الشاعر فى هذا الموضع قوله فى قصيدة أخرى :

ألا ترى الشمس حلت الحملا وقام وزن الزمان فاعتدلا

ومعروف أن برج الحمل هو أحد الأبراج الشمسية الإثنى عشر وهى الأبراج التى كشفت عنها حضارة مصر القديمة،وفى الشطر الأيمن من البيت نرى الاشارة الاصطلاحية إلى «حلول » الشمس فى هذا البرج تلك التى تتصل فى البيت الذى عرضنا له سابقا «بمحل» الشمس وإن كان هذا الأخير يتعلق بالحركة اليومية الظاهرية للشمس بينما يتعلق البيت الذى نعرض له هنا بحركتها السنوية ، فالشطر الأيمن يتعلق كله بحركة الشمس فى السماء وحجبها لمجموعة نجمية إثر مجموعة نجمية أو لبرج إثر برج بينما الشطر الأيسر يختص بما يجرى على الأرض على أساس حركة

المجموعة الشمسية كلها فى السماء ، ذلك أن فصل الربيع يحل هنا ويستوى طول الليل والنهار ويعتدل الجو بين الحر والبرد،وهكذا ينعطف ما يحدث على الأرض فى الشطر الأيسر من البيت نحو ما يحدث فى السماء فى الشطر الأيمن منه انعطاف النتيجة على السبب،وهذا هو سر الدورة الدلالية السلسة الناعمة بين الشطرين ، ومما يلفت النظر فى هذا البيت أن الشطر الأيسر يحمل مفهوم الزمان،والشطر الأيمن يحمل مفهوم الحركة،فالزمان ليس شيئا اكثر من حركة المكان . وهكذا يدخل الزمان فى الشطر الأيسر باعتباره نتيجة لحركة المكان فى الشطر الأيمن ، وقد كشفت رسالة ابن القارح لأبى العلاء المعرى أن المرحلة الوسطى من الحضارة كانت تعرف حقيقة العلاقة بين الزمان والمكان وهى أن الزمان هو حركة المكان ، وبيت أبى نواس صريح فى الدلالة على هذه المعرفة ، فقيام وزن الزمان واعتداله هو نتيجة مباشرة لحركة الأجرام الفلكية،ولكى ندرك الأهمية الكبرى لفكرة علاقة الزمان بالمكان فإننا نشير إلى أن اينشتين فى العصر الحديث قد تبنى فى نظريته فكرة منكوفسكى بأن الزمان هو البعد الرابع للمكان .

والشاعر موفق فى التعبير باعتدال وزن أو ميزان الزمان عن هذا التساوى بين طولى الليل والنهار فى الربيع ، وهذا الاعتدال بين الحر والبرد مع حلول الشمس فى برج الحمل ، واختياره لصورة الميزان فى التعبير عن المجرد بالمجسد هنا اختيار يأتى جماله من دقته فى دلالة الميزان على التعادل .

نحن فى هذا البيت إذن مع جناحى العلم والأدب معا .. العلم فى أرقى ذروة له ممثلة فى الفلسفة ، والأدب فى أعمق مفاهيمه باعتباره رحلة من المجرد إلى المجسد فى إطار فن التشبيه ودرجاته الأعلى ، ونحن فى هذا البيت مع معرفة علمية راقية لا بالنسبة لعصرها بل بالنسبة لعصور الحضارة جميعا حيث يتطلع العلم للسماء مستكشفا لظواهرها وحقائقها فى علاقتها بالأرض .

لقد ذكرنا الإشارتين الفلكيتين الدقيقتين فى شعر أبى نواس هنا فى الجانب اليونانى الذى استغرقت الفلسفة معظمه لأن الفلسفة فى تلك العصور كانت تحتوى مختلف العلوم ، والمعلومات الفلكية الدقيقة التى خلفتها مصر القديمة وصلت إلى الحضارة العربية عن

طريق اليونانيين الذين كانوا تلاميذ مخلصين للكهنة العلماء فى مصر والذين كانوا يفخرون بأنهم يعتبرونهم أولادا لهم، وهى أيضا المعلومات التى وصلت إلى أوربا عن طريقهم فى فترة مبكرة جدا من نهضتها، وقد بنى تيخو براهى قياساته الطويلة الدقيقة لحركة الكواكب على أساس النظرية المصرية القديمة القائلة بدوران الكواكب حول الشمس، ولولا ذلك ما نجحت هذه القياسات ، واعترف تلميذه العظيم كبلر وهو يعلن القانون الثالث بأنه سرق التماثيل الذهبية المصرية القديمة ، وجاء نيوتن الذى استخرج قانونه فى الجاذبية من قانون كبلر الثالث ليعتبر أن عمله هذا داخل فى نطاق الفلسفة، أو فى نطاق فلسفة الطبيعة كما سمى كتابه الخالد .

فاحتضان الفلسفة للعلوم ظل قائما حتى القرن السابع عشر الميلادى ممتدا من المرحلة الوسطى للحضارة البشرية ، وهذه المرحلة الوسطى عرفت المعلومات ولم تعرف القياسات الرياضية التى قامت بها الحضارة المصرية القديمة، وأيضا الحضارة الأوربية ولهذا فإن إشارات أبى نواس كشاعر إلى الموضع الظاهرى للشمس

فى حركتها اليومية وإلى حركتها السنوية بين المجموعات النجمية أو الأبراج هى إشارات لها قيمتها العالية حقا بالنسبة للعلم الفلكى فى العصور الوسطى.

وشاعر كهذا يصور بكل هذه الدقة حركتى الشمس ليس من الغريب أن نراه يتناول قضية الحركة والسكون نفسها فى مختلف موضوعات شعره وهى قضية شغلت الفلسفة اليونانية بدرجة كبيرة وكما «تحرك» بقضايا هذه الفلسفة الكبرى من مجالاتها الخاصة إلى الشعر بغزله وخمرياته نراه يشير إلى قضية الحركة والسكون فى ثلاثة مواضع إذ يقول فى مديحه لهارون الرشيد :

للجود من كلتا يديه محرك   لا يستطيع بلوغه الإسكان

وينقل نفس القضية إلى زهدياته بقوله فى الجنين :

يسوقه من هواء   إلى قرار مكين

حتى بدت حركات   مخلوقة من سكون

ويقول فى موضع ثالث :

بآنية مخروطة من زبرجد ... تخير كسرى خرطها ليصونها

بكف تكاد الكأس تدمى بنانها ... إذا أزعج التحريك منها سكونها

ومن يتأمل ما ثار حول قضية الحركة والسكون فى الفلسفة اليونانية التى كان تيارها يتدفق من خلال حركة الترجمة الواسعة فى هذه الأيام يدرك أن هذا الشاعر الداهية لم يكن بعيدا عن التأثر بهذه القضية الكبرى التى حيرت العقل البشرى ولا تزال تحيره حتى الآن حيث اكتفى العلم مع بدايات النهضة الأوربية الحديثة بالوصف الرياضى للحركة نفسها فى مثل قانون العجلة لجاليليو ، والقانون الثالث لكبلر ، وقانون ماكسويل لحركة الضوء أو الموجات الكهرومغناطيسية ، وتوقف تماما ذلك الجدل الواسع الذى ثار حول طبيعة الحركة وعلاقتها بالسكون فى الحلقة اليونانية من تاريخ الحضارة .. وكان أرسطو قد تحدث عن المحرك الأول (الله تعالى) ، فالحركة لا تأتى ولا تبدأ إلا من سكون ، ونال زينو الإيلى شهرته فى الفلسفة اليونانية بما أثاره من قضايا حول علاقة الحركة بالسكون فى السهم المنطلق من القوس وفى السباق بين البطل

اليونانى أخيل وبين السلحفاة فلكى يقطع المتحرك مسافة ما يجب أن يقطع أولاً نصف هذه المسافة ولكى يقطع هذا النصف يجب أن يقطع نصفه قبل ذلك وهكذا بلا نهاية . وتوصّل زينو من خلال مثل هذه المتناقضة فى العلاقة بين الفضاء والزمان إلى أن السهم لا يتحرك ، وأخيل لا يلحق بالسلحفاة ! فالعلاقة بين الحركة والسكون كانت موضوعا مثيرا لجدل واسع فى المرحلة الوسطى من الحضارة حيث عاش شاعرنا الذى لم تغب هذه القضية عن وعيه كما لم تغب كبرى القضايا فى الفلسفة فيما مر بنا . وفى هذا الضوء لا يمر مرورا عابرا بهذه الحركة المخلوقة من سكون ولا هذا المحرك الدائم الذى لا يبلغه السكون ولا هذا التحريك «المزعج» للسكون ، وها هو يشمل فى هذه الأبيات المتفرقة الحركة والمحرك وعملية التحريك فى علاقة كل من هذه المفاهيم بالسكون . وهو فيها يشير إلى الظاهرة (الحركة) وسبب الظاهرة (المحرك) وبدء الظاهرة (التحريك) أى نفس القضايا التى شغلت الفلسفة فى المرحلة الوسطى ، والتى نحتها الحضارة الحديثة جانبا وانشغلت بالوصف العملى الرياضى لحركات معينة فى الكون .

وهكذا ترانا أمام شاعر يمتلك فكرا ذا نهم شديد للمعرفة بمختلف جوانبها ولهذا فنحن حين نحلله نجد هذه العناصر المختلفة تكون هذا الفكر الغنى الذى يقف وراء هذه الشخصية الفذة بحق فى تاريخ الشعر العربى ، والذى يتناول أى غرض من أغراض الشعر فتشعر بهذا الغنى وهذه الأعماق والأبعاد التى لا ندرك طبيعتها إلا بالتحليل الدقيق لطبيعة تركيب هذا الفكر .

ومن مفهوم الفلسفة الشامل إلى فكرة التولد عند سقراط، إلى مبدأ الهوية عند أرسطو، إلى الفلك، إلى الأخلاط الأربعة، إلى الحركة والسكون، نرى لونا آخر فى تركيب الفكر النواسى هو العلم بالنحل فى هذه الأبيات التى تكشف عن اطلاع واسع لا يستهان به وخاصة فى أيامه :

ترعى أزاهير غيطان وأودية   وتشرب الصفو من غدر وإحساء

فطس الأنوف مقاريف مشمرة   خوص العيون بريئات من الداء

من مقرب عشراء ذات زمزمة   وعائذ متبع منها وعذراء

تغدو وترجع ليلا عن مساربها   إلى ملوك ذوى عز وأحباء

كل بمعقله يمضى حكومته في حزبه بجميل القول والراء
لم يرع بالسهل أنواع الثمار ولا ما أينع الزهر من قطر وأنداء
زالت وزلن بطاعات الجماع فما ينين في حذر منها وإرجاء
حتى إذا اصطك من بينانها قرص أروينها عسلا من بعد إصداء
فآن من شهدها وقت الشيار فلم تلبث بأن شيرت في يوم أضواء

فهذا الذى نراه ليس فكر شاعر يمر بالأشياء والأحياء مرورا عابرا، وإنما هو فكر شغوف بالمعرفة فى شتى جوانبها ، إنه فكر فلسفى محيط شامل .. فهو يصف أحوال نحل العسل وصفا دقيقا محيطا يتناول أشكالها المميزة وأصواتها وعاداتها فى التناسل وتكوينها الاجتماعى بنظامه الملكى حيث لا تقوم الملكات بما يقوم به غيرها من امتصاص رحيق الزهور ، وما يكون من أمر موت الذكر والملكات فيما يسميه «بطاعات الجماع» وما يكون بعد ذلك من ملء الأقراص بالعسل حتى يحين أوان الشيار أو جمع العسل منها ،

الرافد العربى :

وهذا الفكر الفلسفى الشامل لأبى نواس نلمح فيه خطوط وعناصر الثقافة العربية المسلمة من الحديث والفقه واستنباط الأحكام وعلم الكلام والمنهاج التجريبى للعلم الذى أخذت به الثقافة العربية وعبر عنه الجاحظ المفكر الشامل الذى كان أحد ثمرات فترة ازدهار الحلقة العربية فى تاريخ الحضارة .

ونحن نرى بوضوح آثار تلك الأيام التى سعى فيها أبو نواس للعلم فى المربدين والمسجد الجامع بالبصرة ومخالطته لرجال الحديث والفقه وأخذه عنهم فى إشارته التى أسلفناها إلى مراكز العلم فى مثل قوله :

قل للمليح أما تروى الحديث وما خالفت فيه وما جاءت به الصحف

إن القلوب لأجناد مجندة لله فى الأرض بالأهواء تختلف

فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

وكما نقل أبو نواس قضايا الفلسفة والمنطق الكبرى إلى مجالات أخرى فى فن الشعر فهاهو ينقل الحديث الشريف بنصه إلى مجال

الحب ، وها هو يناقش من يحب مناقشة الخبير بالحديث وروايته والمخالفة فيه ، وبما جاءت به الصحف ، وهى كما نرى عبارات عقل ولسان مرنا على السماع الكثير والدرس الجاد لهذه المصطلحات وإلا لما طاوعت الشاعر هذه المطاوعة ولما تحولت إلى هذا الفكر المنغوم الذى نسميه الشعر ، وأكثر من ذلك نجد نص الحديث مثبتا فى البيتين التاليين وخاصة فى البيت الثالث الذى يستغل فيه الشاعر هذا التقابل الجميل بين التآلف والتخالف ، وبين الائتلاف والاختلاف .. ومع هذا فمقصد الشاعر لا يبدو لى واضحا تماما فى هذه الأبيات الثلاثة فهو يقول لمن يحب إنه يخالف ما جاء به حديث الرسول عليه السلام من أن القلوب أجناد مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فما الذى يريده إذن ؟ إن هذا التآلف والتخالف بين القلوب مسألة إلهية لا دخل فيها لأصحابها فما الذى ينكره الشاعر ممن يحب فى نطاق هذا الحديث النبوى؟ هل يريد منه أن تكون له إرادة فيما لا إرادة فيه لإنسان من انعطاف القلوب نحو بعضها أو انحرافها عنها ؟ نعم القصد هنا غير واضح بل لعله غير سديد لأنه يطلب ممن يحب ما لا يستطيعه

فعلا بنص الحديث نفسه ؟

ومع هذا فالأبيات الثلاثة قوية الدلالة على تلك الأيام التى قضاها في درسه للحديث . ثم تأمل معي كيف يتحرك الشاعر بالفقه وعالمه إلى عالم الحب والمحبين بكل ما يملكه من خفة الروح والظل :

أتأذن لى – فديتك – بالسلام عليك ، وفى القليل من الكلام

أتغدو للحديث إلى فقيه وتنظر فى الحلال وفى الحرام

فهل حدثت عن قتلى بشىء إلى الفقهاء يا بدر التمام؟

فهذا «النظر» فى الحلال والحرام ، وهذا الحديث بشىء من الفقهاء تعبيرات لا تصدر إلا عن رجل درس الفقه وأطال الدرس فيه وهو ما نعرف جذوره من مواظبة الشاعر فى شبابه على حلقات المحدثين والفقهاء فى المسجد الجامع وأخذه عنهم ومناقشته لهم .. وهذا الدرس لم يذهب هباء وانما ها هو يسعف الشاعر فى حديثه عن محبوبته جنان التى كانت لها كما هو معلوم دراية بالحديث والفقه والأدب شأنها فى ذلك شأن الجوارى المتعلمات المتأدبات فى عصرها ومنهن من كانت تقرأ فى كتاب اقليدس الذى صنف فى

نظريات الهندسة وهو المناظر لكتاب الخوارزمى الذى صنف فيه معادلات الجبر القديم ، نعم كانت الجوارى فى هذا العصر على هذا القدر من الاهتمام بالأدب والعلم فى شتى جوانبه من الثقافة اليونانية والعربية وفى هذه الفترة الزاهرة من ازدهار الحضارة العربية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وها هو أبو نواس يدعو محبوبته إلى ان تنظر مع الفقهاء الذين تحدثهم فى أمر قتلها له بجمالها الفتان وصدها الدائم عنه.

وينقل ابو نواس «استنباط» الأحكام الفقهية إلى مجال سورة الخمر فى قوله :

صرف إذا استنبطت سورتها   أهدت إلى معقولك الفرحا

ولعلك توافقنى على أن استنباط هذه السورة هو تعبير لا يصدر إلا عن عقل مرن عل هذا المصطلح الفقهى الدقيق حتى ينقله بهذه الصورة إلى مجال الخمر ، فالخمر عند هذا الشاعر مجال لتطبيق أهم مبادىء المنطق (مبدأ الهوية) كما مر بنا ولأكثر الأعمال الفقهية تطلبا للإحاطة بجوانب الفقه وللذكاء ممثلة فى الاستنباط وهو

استنباط لن يؤدى إلى نتيجة عقلية ، بل إلى نتيجة شعورية هى هذا الفرح الذى تهديه سورة الخمر إلى العقل . وأبو نواس فى اختيار كلمة الفرح فيلسوف كبير بحق كما وصف نفسه لأنه بذلك يضع المشاعر والأفكار فى مرتبة واحدة بحيث يمكن أن يحل الشعور محل الفكر وهما الجانبان الأساسيان فى تكوين الانسان .. فالحكم العقلى الذى يأتى نتيجة عملية الاستنباط هو الفرح !

إن هذا المزج بين الفكر والشعور والنظرة الشاملة القادرة على إحلال هذا مكان ذاك ليست شيئا هينا على الإطلاق ، ولعلنا لا نصادفها أبدا بهذا الأسلوب وهذه الدقة فى التعبير ، وهذا الجمال الآسر الخلاب عند غير أبى نواس على طول تاريخ الشعر العربى !

ثم تأمل معى نقد الشاعر لمنهج السماع والاتباع فى العلم فى البيتين التاليين مواصلا حملته الشهيرة على استمرار المقدمة الطللية فى بناء القصيدة العربية :

نصف الطلول على السماع بها   أفذو العيان كأنت فى الحكم

وإذا وصفت الشىء متبعا   لم تخل من زلل ومن وهم

أهناك شك لدينا فى أننا أمام عالم ولسنا أمام شاعر وكفى ؟ أليس هذا هو أسلوب الأستاذ المعلم المتمكن من العلم بل من منهج العلم ؟ وأبو نواس هنا يعرض هذه القضية النقدية على أهم منهج علمى شغل الحضارة حتى فى مرحلتها الحديثة فى أوروبا ذلك هو منهج التجربة المباشرة .. وفى هذا القرن الثالث الزاهر نرى الجاحظ بفكره الفلسفى الشامل ينقد المعلم الأول فى قوله إن الضفادع لا تنق تحت الماء على أساس أن ذلك قول لا يسنده العيان فذلك عسر على حد قول الجاحظ ، وها هو أبو نواس ابن هذا العصر الذى تفتح عقله فيه على مختلف المعارف من الثقافات المتعددة التى صبت روافدها فى اللغة والحياة العربية يقارن هذه المقارنة المنطقية بين صاحب السماع وصاحب العيان للشىء فى البيت الأول ... إنها مقارنة يحملها هذا السؤال الذى لا يحتمل إلا ردا واحدا هو ألا يكون صاحب العيان مساويا لصاحب السماع فى الحكم على الشىء (فما راءٍ كمن سمعا) ، ولا يفوتنا أن نتأمل هذا التركيب الحضرى اللطيف فى الشق الأيسر ذلك الذى يحمل هذا السؤال : أفنو العيان كانت فى الحكم ؟

إنه يقارن فيه بين صاحب العيان أو مالكه وبين «أنت» التى ينعطف بها نحو الشق الأيمن حيث واصف الطلول على السماع ، وهكذا ترانا بين مالك لهذا الشيء الواضح المباشر وهو العيان وبين هذا الذى يصف الشيء على السماع به ، هذا الذى لا يملك شيئا وإنما هو يفعل ما يفعل على السماع ، وحرف الجر هنا يوحى بعدم التمكن والثبات فى مقابل الصاحب والمالك للعيان ، وها هو الشاعر المتمكن من أداة فنه يطوعها ، وهو يجريها على نغم الشعر وحركته الدائرية المحسوبة للتعبير الدقيق بل الغنى فى إيحائه بالمعنى الذى يريد ويكسب به هذه المقارنة المزيد من العمق والدقة والقدرة على الإقناع ، وعلى أساس هذه المقارنة يبنى بيته التالى الحامل لهذا الحكم العام وهو أن واصف الشيء باعتباره مصدرا ثانويا أو تاليا أو تابعا لابد واقع فى الخطأ والوهم اللذين لا يقع فيهما المصدر الأصيل المباشر للخبر .

إن هذين البيتين لم يحملا أبدا قضية بديهية بسيطة كما يبدو للوهلة الأولى وإلا فهل كان يمكن أن يكون بين اتباع الآراء السابقة

وبين أصحاب الدعوة إلى التجربة المباشرة للأشياء كل هذا الصراع المرير فى بدايات النهضة الأوروبية الذى راح ضحيته جونو برونو وغيره كثيرون ممن أصروا على أن يحصلوا على المعرفة بأنفسهم مباشرة وألا يعتمدوا على ما وصل اليهم من أرسطو أو المعلم الأول فى شأن موضع الأرض بالنسبة للكون .. إنها قضية كاد جاليليو نفسه يذهب ضحية لها لولا كبر سنه ورجوعه أمام المحكمة التى نصبت له حيث أعلن تراجعه عن رأيه واحترامه لآراء السابقين .. نعم القضية التى يعرض لها هذا الشاعر بكل هذه البساطة التى تبدو فى البيتين ليست قضية يسيرة فى تاريخ الحضارة البشرية ، وبانحسامها فقط حدث التقدم الذى تعيشه حضارتنا الراهنة !

الرافد الفارسي :

ولم تكن الثقافة اليونانية وحدها بفلسفتها ومفهومها ومنطقها وقضاياها وعلمها هى النبع الوحيد الذى استقى منه الشاعر وكون إشعاعه الفكرى بخطوطه المتعددة التى لمحناها فى شعره إلى جانب الثقافة العربية الإسلامية بعناصرها من الحديث والفقه وعلم الكلام هى كل شيء ، وانما هناك أيضا الثقافة الفارسية ، ولا ننسى أننا مع شاعر فارسي الأصل ، وهذه الثقافة الفارسية تجلت بوجه خاص فى الفن القصصى بأبرز خصائصه من تصوير وحوار لليالى الأنس والطرب واللهو والسرور وكل ما تضمه من سحر الطبيعة ، وجمال الرسم والنقش فى كؤوس الشراب ، ومن غناء وعزف على آلات الطرب ، ولا عجب فى ذلك فقصص الليالى وسحرها ممثلة فى ألف ليلة وليلة هو أبرز ما يتجلى للعالم من الثقافة الفارسية . وفى يقينى أن شاعرا آخر فى العربية لم يجار هذا الشاعر الفارسى الأصل فى دقة الحوار وروعته ، وشوقى ينافسه بحق فى روعة التصوير للطبيعة لكن أبا نواس ينفرد بهذا السحر الذى لا يجارى فى تصوير الليل ، وهيا بنا نتأمل هذه الأبيات التى تمثل براعة أبى

نواس الفائقة في الحوار والتصوير معا :

وخمـــار حططـت اليـــه ليـــلا   قلائص قد ونين من الســـفار
فجمـجـم والكـرى فى مقلتـــيه   كمخمور شكا ألـم الخمـار
أبن لى كيف صرت إلى حريمى   ونجـم الليـل مكتحـل بقـــار
فقـلت لـــه ترفـــق بـى فإنـى   رأيت الصـبح من خلل الديار
فكان جـوابه أن قـال : صبـح   ولا صـبح سوى ضوء العقـار
وقـام إلى العقـار فسـد فاهـا   فعـاد الصبح مسـود الإزار
فحـل بزالهـا فى قعـر كـاس   محـفـرة الجـوانب والقـرار
مصورة بصـورة جـند كسـرى   وكسرى فى قرار الطرجهار
وحل الجند تحت ركاب كسـرى   بأعمـــدة وأقبـيـة قـصـــار

فها هو الخمار يبدى ضيقه بهذه الزيارة التى قطعت عليه نومه وأفقدته راحته بهذه الصورة التى تجعل نجم الليل مكتحلا بالقار...إنها صورة مناسبة تماما للتعبير عن الضيق والاستياء ، ثم إن القار مناسب أيضا للغة الخمار الذى يتعامل مع هذه المادة فى

سد أفواه الدنان كما يذكر أبو نواس كثيرا فى خمرياته ، وهكذا تنعطف الصورة فى الشق الأيسر من هذا البيت نحو الشق الأيمن : أبن لى كيف صرت إلى حريمى ؟ واختيار الشاعر لكلمةحريمى هنا اختيار موفق إلى أبعد حد فى هذا الموقف لأنها تحمل دلالة المنع والتحريم وكأن الخمار يريد أن يكون طرق بابه محرما فى هذه الساعة من الليل ، ونستطيع أن نتبين مدى توفيق الشاعر فى اختيار هذه الكلمة بالذات فى هذا الموضع والموقف لو أبدلناها بكلمة أخرى تشغل نفس الحيز النغمى مثل مكانى أو ديارى أو غيرها عندئذ تحس أن القيمة الدلالية للبيت قد فقدت الكثير جدا من سحرها وغنى الايحاء فيها لأنها لا تحقق ما حققته كلمة «حريمى» من الدلالة الدقيقة على نفسيه الخمار فى هذا الموقف تماما كما تحمل كلمة القار فى قافية البيت دلالة مماثلة تنسجم مع لون السؤال بكل ما فيه من كآبة واستياء.

وتأتى إلى البيت التالى الذى يحمل حديث الشاعر راجيا الخمار أن يترفق به لانه لم يطرق بابه إلا بعد أن رأى تباشير الصباح من

خلال الديار ! وبذلك تنعطف رؤية الشاعر للصبح فى الشق الأيسر من البيت باعتبارها عذرا يوجب الرفق المطلوب فى الشق الأيمن ، ويدور تيار المعنى فى البيت بين هذين القطبين وهو تيار يقويه ويبعث الحرارة والضوء فيه هذه الرؤية من خلال الديار حيث تؤدى كلمة خلل هنا دورها الرائع فى عدم التبين الكامل للشاعر فى رؤيته الصبح .. لقد رآه من «خلل» الديار ويكون هذا الرد «البرىء» الذكى من جانب الشاعر بمثابة الماء الذى أخمد نار الغضب والاستياء من جانب صاحب الحانة فقد أرضاه كثيرا لأنه أدرك أن الصبح الذى توهمه الشاعر ليس إلا الضوء المنبعث من خمره !

فكان جوابه أن قال صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار

تأمل معى قوله فكان جوابه لأنها تدل على فترة صمت قصيرة تحول فيها الخمار من الغضب إلى الرضا ، ولو لم يكن ناظم هذا الشعر أبانواس ببراعته الفائقة لكتب على الفور على سبيل المثال :

فرد بدهشة : أتقول صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار

أو : فرد بقوله أتقول صبح أو لقال شيئا شبيها بذلك يحمل رد

الخمار الذى يأتى هنا فوريا ولا يحمل هذه الدلالة البارعة الرائعة التى تشير إلى هذه الهنيهة من التحول النفسى للخمار إلى الرضا فى قوله :

فكان جوابه أن قال صبح ؟ ولا صبح سوى ضوء العقار

إن تساؤله فى آخر الشق الأيمن من البيت يحمل تلك الدهشة التى تحول بها الموقف تحولا تاما . الدهشة من سذاجة الشاعر تلك التى جعلته يتعاطف معه ، لكن هذه الدهشه نفسها سرعان ما تحولت إلى زهو وفخر فى الشق الأيسر من البيت فليس هذا الصبح إلا ضوء عقاره الجيدة التى تشع الضوء كما يشع الصبح نفسه ، وهكذا ينعطف الصبح الذى أشرق من العقار نحو الصبح الذى توهمه قاصد الحانه فى هذه الساعة من الليل ليدور تيار المعنى هذه الدورة الفاتنة الناعمة ، واذا بالخمار ينهض ليؤكد للشاعر أن هذا الصبح الذى توهمه هو حقا صبح العقار وضوؤها فى غمرة زهوه بخمره الذى أنساه ما اعتراه من ضيق وغضب :

وقام إلى العقار فسد فاها فعاد الليل مسود الإزار

وها هو صاحب الخمر يصبها للشاعر فى كأس تحمل النقوش الفارسية التى اعتاد أبو نواس أن يرسمها بالكلمات فى خمرياته :

فحل بزالها فى قعر كأس | محفّرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى | وكسرى فى قرار الطرجهار
وحل الجند تحت ركاب كسرى | بأعمدة وأقبية قصار

ألست معى فى أن كلمة محفّرة فى الشطر الأيسر من البيت الأول توحى بهذا الفن الذى أداه صاحبه فى تؤدة وحذق رغبة فى الاتقان .. إن يده لم تحفر وانما حفّرت بتشديد الفاء ، وها هو الحيز النغمى فى أول الشطر الأيمن من هذا البيت كأنماهو مهيأ فيه لهذه الكلمة بالذات بإيحائها الدقيق العميق الغنى ، إنه حيز لا يصلح لكلمة أخرى دالة على فن الحفر ! وهكذا يتحقق ما أسميه معادلة الفكر والنغم فى هذه الكلمة بالذات نافية ما يقال من أن مقتضيات النغم تجعل الشاعر يتحرك بالمعنى حركة المقيد المكبل بالأغلال ، فأين هذا مما نراه فى مثل هذه الكلمة التى تحقق المتطلب النغمى وتحقق معه فى نفس الوقت هذا الايحاء القوى

الرائع فى تصوير عملية الحفر على المادة بكل هذه الكفاءة والدقة وكأن هذا المتطلب النغمى يدفع الشاعر دفعا إلى هذا الاختيار الموفق الدقيق.

ولنتأمل كيف شملت نظرة الشاعر للكأس كل ما به من روعة فن الحفر .. انها نظرة شملت فى هذا الحيز الموسيقى الصغير الكأس بجوانبه وقراره .. صحيح أن الكأس شىء صغير ولكن النظرة الشاملة هى النظرة الشاملة فى قيمتها الفنية :

وحل بزالها فى قعر كأس   محفرة الجوانب والقرار

ففى كلمتين اثنتين شمل الشاعر كل الكأس وكل ما فى الكأس من عمل فنى ، انه يجعلنا ندور معه حول الكأس فى كلمة الجوانب ثم تأتى القافية لتغطى النظرة ما بقى من الكأس من قرار . فنحن أمام اختيار موفق كل التوفيق للكلمات قبل أن يأخذ فى البيتين التاليين لهذا البيت فى تفصيل النظرة الكلية الشاملة للكأس ، أما الجوانب فقد حفرت فيها صورة جند كسرى وأما القراو ففيه صورة كسرى نفسه .. ففى هذا البيت تفصيل محكم دقيق لجوانب

الكأس ولقراره ، ولا يكتفى أبو نواس بهذا المقدار من التفصيل بل يزيد رسم الصورة تفصيلا فى البيت التالى بحالة جنود كسرى فى هذه الصورة فقد حلوا تحت ركاب ملكهم بهذه الأعمدة وهذه الاقبية القصيرة ..

إننا فى الأبيات الثلاثة أمام صورة يبدأ الشاعر بوصف كلى شامل لها يتبعه مباشرة بوصف تفصيلى محكم دقيق محيط بكل جوانبها وبهذا يتحقق جوهر الفلسفة حتى فى رسم الشاعر لهذه الصورة .. صورة الكأس وما تحمل من عمل فنى ، وهكذا لا يقف أثر العقلية الفلسفيةعند نظريات الفلسفة والمنطق ونقلها ببراعة إلى فن الشعر بخمرياته وغزلياته ومديحه من نظرية للتوليد ومن مبدأ للهوية ومن الطبائع الأربع ومن رؤية للوحدة فى الاشياء المتنوعة بل المتضادة وغيرها كما رأينا من قبل،وإنما يمتد أثر الفلسفة إلى ما تراه العين من الأشياء فى هذا الوجود لتحقق فيها جوهر الفلسفة من شمول وإحاطة نرى نموذجا لها فى رسم الشاعر بكل هذه البراعة لهذه الكأس ونراها كذلك فى قوله :

لما رأيت محل الشمس في الأفق   وضوؤها شامل للدور والطر ق

صـــيرتها للـتى أحبتها مثـلا   اذ لاينالها شيء سوى الحدق

أرأيت كيف يشمل الشاعر السماء والأرض فى البيت الأول بهذه النظرة الكلية المحيطة الواسعة التى لم تخل من دقة العلم وعمقه ممثلا فيما ذكرناه فيما سبق من دلالة قوله محل الشمس على إدراك لا بستهان به بحركة الشمس اليومية الظاهرية ؟ أرايت إلى قوله وضوؤها شامل للدور والطرق كيف ينتقل الإدراك الفلسفى الذهنى إلى الادراك البصرى وكيف يكون صورة أو امتدادا له عند هذه العقلية التى تشبعت بالفلسفة وبإدراكها العميق لجوهرها إلى هذا الحد الذى رأيناه فيما سلف ...ماذا تركت النظرة الكلية المحيطة الشاملة من منظر السماء والأرض فى هذا البيت الواحد ؟ ومعنى ذلك أن العقلية الفلسفية تظل نفس العقلية من إحاطة بعلم ما فى شتى جوانبه إلى إحاطة بمنظر طبيعى ، إلى الاحاطة حتى بكأس محلاة برسوم فنية ! ولهذا فإن مثل هذه العقلية تظل هى هى فى عظمتها حتى وهى تتناول أصغر الأمور وأقل الأشياء شأنا ، لأن

الاشعاع الضوئى من مصدر ما والاشعاع الفكرى من عقل ما يظل هو هو بغناه وفقره فى مختلف المواضع أو المواقف.

هكذا تتجلى الثقافة الفارسية فى هذا النموذج من شعر أبى نواس بقصصها التى تستمد معظم سحرها من الليل ، ومن الحوار الحى الدقيق البارع والرسوم البديعة لملوك فارس ويمجدهم الذى يبنى فى أكثره على الأمجاد الحربية والحياة المنعمة وسط الطبيعة الفاتنة .

وديوان أبى النواس الضخم ملىء حتى حافّته بهذه العناصر الأساسية من الثقافة الفارسية التى اشتركت مع الثقافة العربية واليونانية فى تكوين هذا المركب الغنى من فكر أبى نواس ، على أن مما أكسب هذه الثقافة الفارسية عمقا وغنى نجاح الشاعرفى مزجها بالفلسفة فيما تفضى إليه النظرة الشاملة المحيطة من موقف معين يتخذه الفيلسوف بناء على هذه النظرة نفسها ، ومعلوم أن ابا نواس اتخذ فى حياته مذهبا معينا وخاصة بعد إخفاقه الذريع المأساوى فى حب جنان ، هو مذهب اقتناص اللذة الحاضرة وهو

مذهب قديم قديم الحضارة البشرية نفسها تراه فى الادب المصرى القديم وفى الفلسفة اليونانية بل نراه فى الشعر الجاهلى وهو نفس المذهب الذى نادى به الخيام فى رباعياته التى سحرت الغرب الأوربى فى إبان نهضته الحديثة ومذهب الخيام وأسلوبه فى الدعوة اليه هو نفس مذهب أبى نواس سواء بسواء من الدعوة إلى الخمر والهوى ، والتركيز على الحاضر ولذاته دون نظر لماض أو اعتبار لمستقبل وهكذا تصب النزعة الفلسفية التى تشبع بها أبو نواس على علم بالفلسفة كما رأينا فيما سبق ..تصب فى هذا الموقف الذى عبر عنه أبو نواس بأكبر قدر من الوضوح فى قوله :

غدوت على اللذات منتهك الستر ... وأفضت بنات السر منى الى الجهر

وهان على الناس فيما أريده ... بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر

رأيت الليالى مرصدات لمدتى ... فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

وكؤوس الخمر عنده خير من كؤوس المنايا التى تدور على أولئك الذين يفضلون حياة الحرب :

فلا خير فى قوم تدور عليهم ... كؤوس المنايا بالمثقفة السمر

تحيتهم فى كل يوم وليلة ... ظبا المشرفيات المزيرة القبر

لقد أردت فى هذا البحث أن أحصل على عناصر التركيب الدقيق لفكر الشاعر من شعره نفسه وليس من الأخبار التى تصور لقاءه برجال العلم فى عصره والشيوخ الذين تلقى عنهم وأماكن الدرس التى اختلف إليها، لكن أبا نواس نفسه يقدم لنا فى شعره صورة جميلة لاختلافه إلى أماكن الدرس فى شبابه فى البصرة ويذكر رفاق العلم فى هذه المرحلة الغضة من العمر بحنين عميق .. إنه بالفعل يرسم لنا صورة تذكارية لأيام الدرس ورفاقة وهى صورة عزيزة على كل إنسان :

عفا المصلى وأقوت الكتب	منى فالمربدان فاللبب
فالمسجد الجامع المروءة والديـ	ـن عفا فالصحان فالرحب
منازل قد عرفتها يفعا	حتى بدا فى عذارى الشهب
فى فتيه كالسيوف هزهم	شرخ شباب وزانهم أدب
لم يخلف الدهر مثلهم أبدا	على ، هيهات .. أمرهم عجب !

فنحن أمام شاعر تلقى فى صباه ما يمكن أن نسميه تعليما منظما فى مركز مرموق من مراكز العلم فى هذه العصور ولكن

تنوع عناصر فكر أبى نواس وألوانه تدل على أنه لم يكتف بما تلقاه فى هذا التعليم وإنما كان له اطلاعه خارجه وبعده على جوانب شتى من ألوان المعرفة فيما لمحناه فى شعره من فلسفة ومنطق وفلك وحديث وفقه ومنهج للعلم ومن تاريخ وغيره يضاف إلى ذلك حس فنى رهيف وتذوق نادر لروائع الشعر العربى جعل هذا الشاعر ينفرد من دون سائر شعراء العربية بتضمين شعره أبياتا من الشعراء السابقين له فى مثل قوله :

وهات .. فغننى بيتى نصيب — فقد وافانى القدح المدار
« ولولا أن يقال صبا نصيب — لقلت بنفسى النشأ الصغار»
«بنفسى كل مهضوم حشاها — إذا ظلمت فليس لها انتصار»

أو قوله :

حتى تغنى وماتم الثلاث له — حلو الشمائل محمود السجيات
يا ليت حظى من مالى ومن ولدى — أنى أجالس لبنى بالعشيات

وقوله :

وحتى تغنى لا هيا متطربا — غناء عميد القلب نشوان ناحل
خليلى عوجا فى صدور الرواحل — بجمهور حزوى فابكيا فى المنازل

أو قوله :

وعندنا ضارب يشدو فيطربنا «يا دار هند بذات الجزع حييت»

بهذا اللمح الفنى ينفرد أبو نواس عن شعراء العربية جميعا فى كل العصور ، وقيمة هذا اللمح أو الخيط فى النسيج الفكرى للشاعر هو اختياره لتلك الابيات أو الشطور التى تصور أعمق وأرق المشاعر الانسانية فى لمحة خاطفة فى إطار هذه المجالس التى انصرفت إلى اغتراف اللذة الحاضرة مما يضيف إلى صورة هذه المجالس الخمرية فى شعر أبى نواس بعدا فنيا متميزا .

وهذا الخيط من التذوق الفنى بصورته الفريدة فى الشعر العربى كله يتصل اتصالا وثيقا بخيط آخر من النزعة النقدية الفريدة أيضا عند أبى نواس هى موقفه من المقدمة الطللية فى القصيدة العربية وهو موقف شهير ألح الشاعر عليه إلحاحا شديدا فى شعره لكن أبا نواس يفصل فصلا تاما بين تذوقه الفنى الرقيق الدقيق للمقدمة الطللية كما وصلت إليه من أصحابها الأصليين الذين عاشوا مشاعر الفراق المستمر فى الجزيرة العربية وعبروا عنها تعبيرا

واقعيا حارا صادقا وبين موقفه النقدى،إنه يقدر الجمال الفنى فيها تقديرا يتجلى بشكل عملى فى تضمينه لها فى أكثر اختياراته،لكنه من ناحية أخرى فى موقفه النقدى يعارض بشدة أن تستمر هذه المقدمة بعد نهاية الحياة المتنقلة التى كان يعيشها الجاهليون فى الجزيرة العربية قبل أن ينتقل العرب إلى حياة الحضارة بعد البداوة التى عاشوها قبل الإسلام ، وإلى الدور والقصور بعد الخيام ، وهو يبرر موقفه النقدى هذا كما رأينا تبريرا علميا بكل ماتحمله ـــ العلم من معنى موردا هذا المنهج العلمى الذى أشرنا إليه فيما سبق فى هذين البيتين :

تصف الطلول على السماع بها ... أفذو العيان كأنت فى العلم

واذا وصفت الشىء متبعا ... لم تخل من خلل ومن وهم

ففى هذين البيتين نحن أمام ناقد عالم بكل معنى كلمة العلم ، وهكذا نستطيع أن نضيف إلى ما سبق من الخيوط فى تركيب النسيج الفكرى لأبى نواس خيط التذوق الفنى والنزعة النقدية بهاتين الصورتين النادرتين تماما فى تاريخ الشعر العربى بجميع عصوره.

واخيرا...

هل أمكننا أن نثبت صحة القانون الذى أسلفناه فى بداية هذا الكتاب من خلال القسم التطبيقى منه؟ إنه القانون الذى نرى فيه عدد الخطوط الفكرية يتناسب تناسبيا طرديا مع المقدرة الفنية للشاعر ، ولعلنا وجدنا الكثير من هذه الخطوط فى تركيب الإشعاع الفكرى لأبى نواس من الثقافات اليونانية والعربية والفارسية مما جعل هذا الاشعاع غنيا كل الغنى بما ثقفه الشاعر من الفلسفة بقضاياها الكبرى ومن منطق وفلك وعلم بالفقه والحديث وما أتقنه من فن التصوير والحوار ، إلى جانب تلك الثقافة الواسعة بالشعر واللغة مما هو واضح فى أشعاره وخاصة فى أراجيزه المتعددة.

إننا بالفعل أمام عقلية غنية بألوان المعرفة التى امتزجت فى شعاع واحد غنى قوى عميق التأثير نلحظه فى معظم ما نقرأ من أعمال هذا الشاعر الذى أضاف إلى ذلك خفة الظل وحضور البديهة.

ولعلنا نكون قد وفقنا فى استخلاص هذه المكونات أو هذه

الخطوط فى فكر الشاعر بالتقاط الاشارات الدالة عليها من النص الشعرى نفسه مع عرضتها على الخلفية الثقافية لعصر ابى نواس هذا العصر الذى كان يحق ذروة مابلغه الفكر فى أيام العباسيين من ثراء ونشاط بالتفتح على مختلف الثقافات بالترجمة وكثرة المكتبات ومجالس العلم والأدب والفن..

ولعل هذا القانون الذى يربط براعة الشاعر بعدد الالوان الفكرية كما يرتبط غنى الضوء بعدد الوانه وموجاته يكون هاديا لنا فى تفسير التميّز فى المقدرة الفنية عند غير أبى نواس ، ولعل ذلك يحفزنا على مزيد من البحوث التحليلية التى تتناول المكونات الدقيقة لعقلية الشاعر الكبير خلال تحليل النص الذى تشعه مما يؤكد لنا صدق هذا القانون وسلامة النظرية التى يقوم عليها .

المراجــع

١ – أبو نواس : ديوان أبى نواس:
بيروت، دار الكتاب العربى، د. ت .

٢ – صــلاح عيــد : السيــرة الذاتية لتوفيــق الحكيم فى كتابية سجن العمر وزهــرة العمـر، الكتاب التذكارى لتوفيق الحكيم، القاهرة المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٨٩ .

٣ – عبد العزيز صالح : الشرق العربى القديم:
القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١ ط٣ .

٤ – لانسلوت هوجبن: العلم للمواطن
القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٣ .

5 - AlBERT, SHADOWITZ : The Electromagnetic Field, Mc. Grawhill Book company. International Edition.